التعريف والنقد

الملاحظ في حيوان الجاحظ

الأستاذ صبحي البصام

قرأتُ كتاب الحيوان قديماً عدة مرات ، وكان يستوقفني إبّان القراءة أمور فيها نظر . ولم يكن من شأني تدوينها . ثم قرأت الكتاب في لندن سنة ١٩٨٢ قراءة تفكّر وتدبّر ، ودوّنت على حدة مختصرات معان لما فيه نظر . وفي تلك المختصرات مادة لبحث طويل . وأكثرها تعقّب أمور على محقق الكتاب الأستاذ الفاضل عبد السلام محمد هارون . وباقيها وهو غير قليل ، تعقّب أمور على مؤلف الكتاب الجاحظ . ولست ناشرها في وقت قريب ، لقصور الحال عن عقد العزم على ذلك أو إحماء النيّة له . على أني كان لي في هذه المجلة الزهراء وعد (مج ٥٧ ج ١ ـ ٢ ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠) ، وهو أن أخصّ « حبة الخضراء » بقول . والقول في هذه الحبة هو مما تعقّبته على محقق الحيوان ، فرأيت أن أفي بوعدي هاهنا ، لأنه دين أنى إناه . ورأيت أن أُلحق بالقول في الحبة تعقّباً لي على الجاحظ في موضعين من كتابه المذكور ، ليستتمّ بهما مقالة ذات فوائد بدلاً من فائدة واحدة .

حبة الخضراء

ورد في كتاب الحيوان (٥ / ٤٥٣) : « فيشقق عن حواصلها فيوجد فيها الحبة الخضراء غضة » . وقال محقق الكتاب في الحبة الخضراء إنها في « ش » (حبة الخضراء) وقال بتحريفها . وبعد سطر وردت « حبة الخضراء » في نص من أصول الكتاب جميعاً عدا (ل) ففيها (الحبة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخضراء) فأخذ برواية (ل) معرضاً عن رواية سائر الأصول لأنها عنده خطأ . وقال : « وفي اللسان (ضرا) ١٩ / ٢١٨ س ١٣ حبة الخضراء صوابها ماأثبت من ل » فخطّأ اللسان أيضاً . والصحيح أن الحبة هذه وردت قديماً على وجهين ، أحدهما الحبة الخضراء بتعريفها بالألف واللام ووصفها ، والآخر حبة الخضراء بتنكيرها وإضافتها إلى صفتها . وممن استعملها نكرة مضافة إلى صفتها الليث ، قال في معنى الضرو : « وهو المحلب ويُقال حبة الخضراء » (التهذيب ١٢ / ٥٧ ـ ضرو) ، وابن الأعرابي ، قال فيما روى عنه ثعلب : « البطم والضرو : حبة الخضراء » (التهذيب ١٣ / ٣١٩ ـ ط ب م) ، وأبو صالح ، قال في قوله تعالى : وجئنا ببضاعة مزجاة : « كانت حبة الخضراء والصنوبر » (التهذيب ٨ / ١٥٥ ـ زجا) . وقال الزمخشري في هذه البضاعة المزجاة : « وقيل الصنوبرَ وحبّةَ الخضراء » (الكشاف ١ / ٦٧٤) . ثم إنها وردت على هذا الوجه في قول الجاحظ في الحيوان (٧ / ٦٠) : « ... فيوجد في حواصلها حبة الخضراء غضةً طرية ... » ، وذلك من بعد أن اعتدّها الأستاذ المحقق خطأ ، ولكنه سكت عنها هاهنا . فقد لزمه من أجل ذلك كله أن يرجع عما قاله من خطئها وخطأ اللسان فيها ، ليكون قصده أمماً ، وطريقه نهجاً . ونظير حبة الخضراء قوله تعالى : « فأنبتنا به جنّات وحبّ الحصيد » [ق / ٩] ، أي الحبّ الحصيد ، وقوله : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » [ق / ١٦] ، أي الحبل الوريد . ومنه قولنا : يومُ الأحد ، ويوم الاثنين ، والأصل فيهما اليومُ الأحد ، واليوم الاثنان . ونحو ذلك يُقال في سائر أيام الأسبوع . ومنه قول لبيد (شرح ديوانه ص ١٥٦) :

ولقد أراني تارة من جعفر ... في مثل غيث الوابل المتحلّبِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقول أحمد بن عيسى الرداعي (صفة جزيرة العرب ص ٤٤٢) :

حتى تناخي عند باب الأعظمِ وتشربي ريّا بحوض زمزمِ

ومازُعم من أن الجنّ رثت عثمان بن عفان رضي الله عنه بقولها (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ص ٢١٨) :

ويلبسْنَ ثياب السو دِ بعد القصبيّاتِ

وهذا يُقال له المضاف إلى صفته أو المضاف إلى نفسه عند اختلاف الاسمين . وكنت ذكرت في مقالتي المذكورة (مج ٥٧ ج ١ ـ ٢ ، ص : ١٨٠) أنه سماعي ، ولايُقاس عليه ، وأوردتُ بعض الشواهد له ، وشئت هاهنا أن أزيدها . ونبّهت في تلك المقالة على تساهل بعض المتأخرين فيه ، وعلى استعماله من قبل بعض الفضلاء من أدبائنا العصريين . وأُضيف إلى ذلك أن العامة يستكثرون منه في عصرنا هذا فيما يكثر دورانه على الألسنة ، كقولهم في العراق « باب الشرقي » و « قراءة الخلدونية » ، وهم يريدون الباب الشرقي والقراءة الخلدونية . وكأنهم يستثقلون تكرير الألف واللام خصوصاً الألف التي هي همزة ، وثقل لفظها معروف . وعسى أن يُجاز استعماله في فنون الأدب ، ولاسيما الشعر ، فيسهّل صعب ، ويُزال حَرَج ، وفيما بسطته من قول فيه معين إن شاء الله على إجازته .

قول الجاحظ « بل إنّما »

استعمل الجاحظ في كتابه الحيوان « بل إنما » في مواضع ، كقوله (٢ / ٢٢٩) : « ولم أزعم أنه قليل الزيغ والزلل » إلى قوله « بل إنما قلت » ، وكقوله (٥ / ٤٢) : « لم يكن لقائل أن يقول : ذلك الهواءُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من شأنه الصعود ، بل إنما ينبغي أن يقول ... » ، وكقوله (٥ / ٥٥٠) : « وعلى أن العقرب ليس تخرق القمقم من جهة الأيد وقوة البدن ، بل إنما ينفرج بطبع مجعول هناك » . واستقرائي منظوم العرب ومنثورهم في الجاهلية وصدر الإسلام يدل على عدم « بل إنما » ، وإنما تدخل « بل » و « إنما » على الجملة منفردتين . وأنا ذاكرٌ هاهنا نصوصاً تدلّ على مجيء « بل » وحدها و « إنما » وحدها . ثم أذكر ماأستدلّه من تلك النصوص وغيرها .

شواهد « بل » :

١ ـ فمن شواهد « بل » قوله تعالى « وماقتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه » [النساء / ١٥٧] ، وقوله « ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » [هود / ٢٧] ، وقوله « لاتحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم » [النور / ١١] .

٢ ـ وقول مهلهل بن ربيعة (مخطوطة جمهرة أشعار العرب . خزانة الكتب البريطانية . الورقة ٦٩) :

لم يك كالسيد في قومه ... بل ملك دين له بالحقوقْ

٣ ـ وقول عوف بن عطيّة التيميّ (اللسان : بدد)[1] :

لاتأكل الإبل الغراث نباته ... بل لايقوم عماده لعمادِ

٤ ـ وقول عمر بن شأس (أمالي القالي ١ / ٢٦٩) :

لسنا نموت على مضاجعنا ... بالليل بل أدواؤنا القتلُ

٥ ـ وقول الخنساء (العقد الفريد ٤ / ٤١٨) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما الغيث في جعد الثرى دمث الربى تبعّق فيها الوابل المتهلّلُ
بأفضل سيباً من يديك ونعمة تجود بها بل سيب كفك أجزل

٦ ـ وقول حسان بن ثابت (الديوان ص ٣٨١) :

وإنّ الذي قد قيل ليس بلائط بها الدهر بل قول امرئ بي ماحلِ

٧ ـ وقول المرقش الأصغر (المفضليات ص ٢٤٢) :

وما قهوة صهباء كالمسك ريحها تُعَلّى على الناجود طوراً وتُقدحُ

إلى قوله :

بأطيب من فيها اذا جئت طارقاً من الليل بل فوها ألذّ وأنصحُ

٨ ـ وقول القاسم بن أمية بن الصلت (الشعر والشعراء ١ / ٤٣٣) :

لاينقرون الأرض عند سؤالهم لتلمّس العلاّت بالعيدانِ
بل يبسطون وجوههم فترى لها عند السؤال كأحسن الألوانِ

٩ ـ وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه من خطبة له (البيان والتبيين ٢ / ٥٤) : « ماكان به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً » .

١٠ ـ وقول معاوية (الأخبار الموفقيّات ص ١٨٢) : « فوالله ماكان فيكم من مدّ باعاً ، ولابسط ذراعاً ، بل أسلمتموه للحتوف » .

شواهد « إنما » :

١ ـ ومن شواهد « إنما » قوله تعالى « ولايحسبنّ الذين كفروا أنّ ما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً » [آل عمران / ١٧٨] ، وقوله « ... فأْتِنا بما تعدِنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الله » [هود / ٣٣ ـ ٣٣] ، وقوله : « وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » [البقرة / ١١] .

٢ ـ وقول ابن الإطنابة (الكتاب ١ / ٤١٤) :

أبلغ الحارث بن ظالم المُو عدَ والناذرَ النذورَ عليّا
إنما تقتل النيام ولاتقـ ـتلُ يقظان ذا سلاح كميّا

وأجاز الخليل الكسر في همزة إنما من قول ابن الإطنابة فاخترته ، لأنه بدء بيت ، وأول قول يصح أن يقوم معناه بنفسه ، ويستقيم فيه أن يؤول حذف « قائلاً » قبله .

٣ ـ وما جاء في رسالة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (تأريخ الطبري ٤ / ١٨٠) : « إن البعير العربي إنما يُقوّم بتعيير اللحم » .

٤ ـ وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الأخبار الطوال ص ٢٢٣) : « ويحك ياابن الكوّاء ،إني إنما حكّمت أبا موسى وحده وحكّم معاوية عمراً » .

٥ ـ ولما قال علي لطلحة رضي الله عنهما : « أخرجتم أمكم عائشة وتركتم نساءكم ، قال له طلحة : « إنما جاءت للاصلاح » (الإمامة والسياسة ١ / ٥٨) .

٦ ـ وقول أعرابية وهي ترقّص بُنيتها (محاضرات الأدباء ص ١٣٨) :

غضبان أن لانلد البنينا تالله ماذلك في أيدينا
وإنما يكره ماأُعطينا[٢]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم تقل « بل إنما » مع أنها أجود للوزن ، لأنها ليست من لغتها .

٧ ـ وقول الحجّاج من خطبة له (البيان والتبيين ٢ / ١٣٨) : « إني سمعت تكبيراً لايُراد به الله ، إنما يُراد به الشيطان »

٨ ـ وقول عمر بن أبي ربيعة (الديوان ص ٢٥١) :

فنصرك أرجو لا العداوة إنما أبوك أبي وإنما صفقنا معا

٩ ـ وقول بعضهم (الوساطة ص ٣٢٠) :

وإنما القرم من الأفيلِ وسُحُق النخل من الفسيلِ

١٠ ـ وقول زياد الأعجم (ديوان الطرماح ص ٣٤١) :

فقم صاغراً ياشيخَ جرم فإنما يُقال لشيخ الصدق قم غير صاغرِ

استدلال واستطراد[٣] :

وقد تهدّيت من أستقرائي نصوص « بل » و « إنما » المذكورة وغيرها إلى أمور هي :

أولاً : إن العرب لم تقل « بل إنما » . ومَثَلُ عدم الجمع بين بل وإنما مَثَلُ سكّينين حادّين[٤] ، إن قُطع شيء بأحدها بسهولة كانت الاستعانة بالآخر فضولاً . ولذلك كان قول الجاحظ « بل إنما » غير مشاكل لكلام العرب[٥] .

ثانياً : يجوز في « بل » و « إنما » احلال احدهما محل الأخرى في الجملة المسبوقة بنفي . لذلك يستوي معنياهما في قوله تعالى « وماقتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه » ، وقول الأعرابية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تـالله مـاذلـك في أيـدينـا وإنمـا يكره مـا أعطينـا

وكذلك يستوي معنياهما في قول علي رضي الله عنه : « ماكان به ملوماً بل كان به جديراً » ، وقول الحجاج « إني سمعت تكبيراً لايُراد به الله إنما يراد به الشيطان » .

ثالثاً : يجوز إحلال احداهما محل الأخرى عند وجود نفي مقدّر ، مثال ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل زيد الخيل : من أنت ؟ فقال : أنا زيد الخيل . فقال الرسول : « بل أنت زيد الخير » (الأغاني ١٧ / ٢٤٨) ، والتقدير : لستَ زيد الخيل ، بل أنت زيد الخير . و « بل » هذه نظير « إنما » في قول طلحة لعلي « إنما جِئْتُ للإصلاح » ، والتقدير : ماجاءت للحرب إنما جاءت للإصلاح . وقد يمتنع إحلال بل محل إنما الاّ بعد إثبات محذوف مقدّر يبدو كأنه بعيد الأصل أو ضعيف الاحتمال ، كما في قول علي رضي الله عنه « إني إنما حكّمتُ أبا موسى وحده وحكّم معاوية عَمْراً » ، فلو أُثبت المحذوفُ المقدّر وهو بعد « إني » : « لم أحكّم أبا موسى وعمراً » لصحّ إحلال بل محل إنما . وكما في قول زياد الأعجم :

فقم صاغراً ياشيخَ جرم فإنما يُقال .... البيت .

فلو جاز إثبات المقدّر في الشعر وهو بعد « جرم » : « ولا غرابة في قولي قم صاغراً » لجاز إحلال بل محل إنما .

رابعاً : أظنّ أن الأصل في « بل » أن تسبق بنفي ، فإن عدمته أمكن تقديره ، وإن بدا أصله بعيداً ، واحتماله ضعيفاً . ذلك بأني وجدت أكثر نصوصها مسبوقة بنفي ، ثم إن تقدير النفي لايخلّ بالمعنى بل يزيده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وضوحاً . فلو قال قائل : أكلت تمراً بل عنباً ، كان الأصل : أكلتُ تمراً ، لابل أكلت عنباً . على أن هذه المحذوفات المقدّرة جميعاً إنما حذفت بعد كثرة الاستعمال ، طلباً للايجاز ، وقصداً إلى البلاغة ، وثقةً بفهم السامع . أما قولهم بزيادة « لا » قبل « بل » أحياناً « للإضراب بعد الإيجاب » (مغني اللبيب ١ / ١١٣) فلا آخذ به ، لظني أنّ « لا » ليست زائدة بل أصلية .

مستعملو « بل إنما » :

وأنا أبحث عن « بل إنما » منذ زمن بعيد ، فلا أجدها في قول من نمط ما أجاز النحويون الاحتجاج به . فإن وجد لها شاهد أو شاهدان مما غُمّ عني فذلك ندور لايقوم به قياس . وإن تبيّن أن الجاحظ مسبوق إلى استعمال « بل إنما » من قبل من لايجوز الاحتجاج بقوله توجّه قولي عليه قبل الجاحظ . واستعمل جماعة من أهل العلم والأدب « بل إنما » بعد الجاحظ عرفت منهم :

أ ـ ابن الرومي استعملها : في شعره مرّة واحدة ، قال (الديوان ص ٢٧٦) :

ما جَرَبُ المرء داء جلدته بل إنما داء عرضه جَرَبُهْ

على أن ابن الرومي ولد سنة ٢٢١ هـ وتوفي سنة ٢٨٣ هـ . وتوفي الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ . فهما متعاصران : على أن الحال تدل مع ذلك على سبق الجاحظ لاستعمالها . ولو كان قال « وإنما » يدل « بل إنما » لظل وزن البيت قائماً ، كقول الشريف الرضي (الديوان ٢ / ٧٨٦) :

ماالذنب للمزن جازتني مواطره وإنما الذنب للأرزاق والقِسَمِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ب ـ والطبري ، وردت في تأريخه كله مرة واحدة ، قال (١ / ٤٨٩) : « بل إنما سأل سليمان عن الهدهد » .

ج ـ وقدامة بن جعفر ، قال في نقد الشعر (ص) : « بل إنما يقال السيف كليل » .

د ـ ومسكويه ، قال في الهوامل والشوامل (ص ١٩٩) : « بل إنما تأتيه الشريعة بتأكيد ماعنده » .

هـ ـ وبعضهم ، قال في رسائل إخوان الصفاء (٣ / ٣٣) : « ولايفقهون أمر المعاش بل إنما ذمهم بحيث أنهم لايفقهون أمر المعاد » .

و ـ وابن سيده ، قال في خطبة المخصص (١ / ٤) : « بل إنما نحيل فيه على أمر واضح » .

ز ـ وابن باجّة ، قال في رسائله (بين ص ٥٤ و ٦١) : « فليس نقصد إحصاء أصناف التدبير بل إنما نقصد التدبير الصادق » .

ح ـ والراغب الإصبهاني ، استعملها في معجم مفردات ألفاظ القرآن مرة واحدة ، قال (ص ٤٠٦) : « بل إنما يُتقبَّل إن كان على وجه مخصوص » .

ط ـ والرضي الاستراباذي في شرح الشافية ، قال (١ / ٢٧) : « بل إنما تقلبان لامين » .

ي ـ وابن حجر ، قال في الصواعق المحرقة (ص ٢١٧) : « بل إنما يستحق الزجر والمقت » .

وهؤلاء وغيرهم ممن استعملوا « بل إنما » هم قليل في جنب كثير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غيرهم ممن جانبتها سلائقهم ، فلم تجر بها أقلامهم ، ولم تنطلق بها ألسنتهم ، ولاسيما رءوس أهل اللغة ، كالخليل وأبي زيد الأنصاري وسيبويه والكسائي والأصمعي والفراء وابن الأعرابي وابن السكيت وثعلب والمبرّد . ولو كان أحد هؤلاء الرءوس وقف على « بل إنما » لجاز أن يعتدّها خطأ أو غير فصيحة . وأراها مما كان فاشياً في كلام العامة فأدخلها الجاحظ في كلامه ثم قفا أثره فيها غيره . وقد يكون بعضهم أخذها من ألسنة العامة رأساً . ومع أن النحاة فضلوا تعبيرات على غيرها ، كتفضيلهم « كاد يفعل » على « كاد أن يفعل » ، وكان لديهم غير قليل من الشواهد لكاد أن يفعل ، فانهم سكتوا عن « بل إنما » على عدم الشاهد لها . على أن تفضيلهم تعبيراً على آخر كان في الأغلب عند كونها من الكلام القديم وليس عند كون أحدهما قديماً والآخر عاميّاً .

وأنا اعتدّ استعمال « بل إنما » في عصرنا هذا من الفصيح ـ والفصيح غير الأفصح ـ ، لاستعمال جماعة من أهل الأدب والعلم إيّاها زمن الدولة العباسية ، وفيهم من له يد باسطة في اللغة ، أو قدم راسخة في النحو ، ولجواز تفسير الجمع بين لفظيها للتأكيد . ثم إننا في ذيول القرن العشرين الذي أثّرت تعابيره الدخيلة في لغتنا ، فأخلقت ديباجتها ذات النمط المنيف ، وجعلتها منبتة من أسباب فصاحتها ، مقطوعة عن أواخيّ ماضيها ، حتى باتت حفنة من غير الفصيح القديم خيراً من حمول من التعبير التي حملها الينا قطار الحضارة الغربية . وإنما قلت ما قلت في « بل إنما » لأزن لغة الجاحظ بميزان العلم القديم ، ولآتي ببعض الفوائد في النحو واللغة ، ولأكشف عن وجه من وجوه التدرّج الطبيعي في استعمال الكلم . وأنا متفرد بما قلت في « بل » و « إنما » من أقوال ، وهي مجيء إنما بمعنى بل ، وعدم الجمع بينهما ، وسبق بل بالنفي . فإن أنكر عليّ منكر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سلوكي بنيّات الطريق في تقدير عبارات محذوفة لـ « بل » و « إنما » على نحو لم يسلكه النحاة ، كان عذري أن هذا التقدير نجم بعد استقرائي نصوصاً هي غاية في الكثرة ، نقلتها ابتداء بزمن الجاهلية وانتهاء بانتهاء الدولة العباسية ، ومع ذلك جعلت تقديري تظنياً ولم أقطع به . إن تقدير العبارات المحذوفة على هذا النحو قد يساعدنا أحياناً في العثور على أصل مبتوت ، أو في جلاء شيء علاه صدأ كثيف .

قول في « بل إنّ »

وقد وجدت أصل « بل إنما » وهو « بل إنّ » وارداً في نصّين يبدوان كأنهما أصليان ، أحدهما في كتاب وقعة صفين (ص ٥٥٨) في قول معاوية للوليد بن عقبة : « بل إنّ أولئك قد وقوا عليّاً بأنفسهم » ، والآخر في وفيات الأعيان بتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد (٥ / ٣٣٦) في رسالة لسليمان بن عبد الملك بعث بها إلى أخيه الوليد جاء فيها : « بل إني لم أُجر إلاّ سامعاً مطيعاً » . فإن احتجّ علي محتجّ بهذين النصّين دفعت الاحتجاج من ثلاثة أوجه . الأول : أن الذي نبهت عليه « بل إنما » وليس بل إنّ . والثاني : إن صحّ هذان الشاهدان ، ولا أظنهما صحيحين كما سيأتي ، فهما شاذّان ولا حفل بهما بالإضافة إلى مايخالفهما من الشواهد المستفيضة . والثالث : إن وقعة صفين ووفيات الأعيان لايعوّل على نصوصها جميعاً في اللغة . ومنها هذان النصّان . فإنّ النص في رسالة سليمان بن عبد الملك في الوفيات الصواب فيه « بل لم أُجر » ، بغير « إنّ » ، كما في طبعة الوفيات بتحقيق العلامة وستنفيلد (٧ / ١١٤ بريل) ، وكما في البداية والنهاية (٩ / ٧٩) لابن كثير الدمشقي . أما في تأريخ الطبري (٢ / ٢١٤ بريل) ففي النص « بل لم أُجر[٦] » . فإن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظهرت مخطوطة من مخطوطات الوفيات بخط ابن خلّكان أو مما قُرئ عليه ، وفيها « بل إني لم أُجر » لم أعجب من هذا التحريف ، لأنّ الرجل أورد « بل إنّ » في بضعة مواضع من كتابه مستعملة من قبله ومن قبل غيره ممن تأخر زمنه عن زمن الجاحظ ، كما في ترجمة عبد المؤمن الكومي (٤ / ١٢٤ بريل) : « لابأس عليه بل إني متعجب مما يدل عليه ذلك » . أما كتاب وقعة صِفّين ، وقد توفي مؤلفه قبل الجاحظ بنحو أربعين سنة ، فقد ظل غير منسوخ من قبل الورّاقين ، يؤخذ سماعاً حتى انتسخ في عصر متأخر من عصور الدولة العباسية . وقال محققه الأستاذ عبد السلام محمد هارون في مقدمته إن نسخة الكتاب التي اعتمدها أصلاً للتحقيق هي مطبوعة في ايران سنة١٣٠١ هـ « وفيها كثير من التحريف والتصحيف والزيادة والنقص » . وقول معاوية فيه « بل إنّ » غريب ، لأنه قرشي ، ولغة قريش بيّنة في القرآن المجيد . فعلى كثرة دخول « بل » فيه على الجمل الاسمية لم ترد « بل إنّ » في أيّ جملة منهنّ . وكان معاوية من كاتبي الوحي فلا يغيب عنه ذلك . والنظر في أشعار القرشيين ورسائلهم وخطبهم يشهد لما أقول ، بل كلام العرب جميعاً يشهد لذلك . واستعمل الجاحظ « بل إنّ » في كتبه ورسائله مرّة واحدة ، ولكنه فصل بينهما بجملة قسم ، وذلك في قوله في الحيوان (١ / ١٦١) : « قال الأولون : بل لعمري إنّ للإبل في السمات لأعظم المنافع » . ثم استعملها جماعة ، أذكر منهم المسعودي ، استعملها في مروج الذهب مرّة واحدة (٣ / ٤٠٢) قال : « بل إنها غنّت » ، والمبشّر بن فاتك ، استعملها في مختار الحكم مرّة واحدة ، قال مترجماً بالعربية (ص ٨٩) : « بل إني لم آمركم بالذي لم أزل آمركم به قديماً » ، وابن خلّكان ، وقد تقدّم نص من كتابه ، وابن هشام في مغني اللبيب (١ / ١٦٧) قال : « بل إنّ المعنى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يعطيها » . وما قلته من أنه لو كان وقف رأس من رءوس اللغة على « بل إنما » لجاز أن يقول بخطئها أو عدم فصاحتها ، أقوله أيضاً في « بل إنّ » وأنا أعتد استعمالها في عصرنا هذا من الفصيح على نحو اعتدادي « بل إنما » ، وعلى نحو مافرشت من أسباب . وعسى أن يكون في قولي هذا في « بل إنّ » فائدةٌ أُخرى في النحو واللغة ، وكشفٌ آخر عن أسلوب من أساليب التدرّج الطبيعي في استعمال الألفاظ .

تفسير الجاحظ بيت شعر

جاء في الحيوان (٦ / ٣٩٨) قول بشر بن المعتمر من قصيدة طويلة له :

لاترد الماءَ أفاعي النقا ... لكنّما يُعجبها الخَمْرُ
وفي ذرى الحرمل ظل لها ... اذا غلا واحتدم الهجرُ

وقال الجاحظ في تفسيره البيت الأول : « فإنّ من العجب أن الأفعى لاترد الماء ولاتريده ، وهي مع هذا اذا وجدت الخمر شربت منه حتى تسكر حتى ربما كان ذلك سبب حتفها » . قلت : أرى أن الجاحظ وهم هاهنا في ثلاثة مواضع :

الأول : تفسيره « الخَمْر » بفتح فسكون بالمشروب المسكر . والصحيح أن « الخَمْر » هو الخَمَر بفتحتين . والمراد به المكان في الصحراء فيه شجر . والأصل فيه مايواريك من شجر وغيره ، يُقال : توارى الصيد في خَمَر الوادي . ومعنى البيت أن أفاعي النقا لاترد الماء لعدمه ، فاذا بلغ منها رمض الحرّ صارت الى الخَمَر ، لذلك قال بشر بن المعتمر في البيت الذي يليه لإتمام معناه : « وفي ذرى الحرمل ظل لها » ، أي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحرمل الموجود في الخَمَر . وأُسكنت الميم من « الخَمَر » للشعر ، كقول صفوان الانصاري في هجاء بشار (البيان والتبيين ١ / ٢٩) :

رجعتَ إلى الأمصار من بعد واصلٍ وكنت شريداً في التهائم والنُّجْدِ

أراد « النُجُد » بضمتين جمع « نَجْد » ، وأُسكن الجيم للشعر . والإسكان قد يرد في النثر كما في جيم « رَجُل » من قوله تعالى في قراءة من قرأ : « وقال رَجْلٌ مؤمن من آل فرعون » (الكشاف ٢ / ١٢٧٢ /غافر) . وقد يحرّك الساكن كقوله :

له نَعَلٌ لايطّبي الكلبَ ريحُها وإن وُضعت بين المجالس شُمَّتِ[٧]

والأصل « نعْل » بإسكان العين ، وكقوله (أمالي القالي ٢ / ١٢٤) :

يقول لي المفتي وهُنّ عشيةً بمكة يسحبْنَ المهدَّبةَ السُّحْلا

أراد السُّحُل فأسكن الحاء ، وهي ثياب بيض واحدها سحيل . وتساهل الكوفيون في اسكان المتحرك وتحريك الساكن حتى إنهم أجازوا ذلك في الثلاثي الذي ثانيه من أحرف الحلق في النثر والشعر . قالوا إن شئت فحرّكْ وإن شئت فسكّنْ . ومما يأتي الخَمَرَ الذئبُ ، لذلك قالت العرب : « أخبث من ذئب خَمَر » (الحيوان ٦ / ٤١٠) . ومما يلزم الخَمَر حين يغتلي الحرّ الظباءُ ، قال الشمّاخ (الديوان ص ٣٣١) :

اذا الأرطى توسّد أبرديه خدودُ جوازئ بالرمل عِيْنِ

وقال ابن دُريد في الجمهرة في تفسيره : يريد أنها تتوسّد بالغداة غصون الأرطى التي تلي المغرب فاذا دارت الشمس دارت معها ناحية المشرق فتوسّدت الغصون التي مالت الشمس عنها .. (أيضاً الديوان ص ٣٣١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكنتُ بعثت بكتاب الى حَيْر لندن[٨] ، وبآخر الى متحفة التأريخ الطبيعي بلندن ، ذكرت فيهما تفسير الجاحظ لمعنى البيت وتفسيري المخالف له ، وذكرت معنيي « الخَمْر » واحتكمت اليهما ، وسألتهما سؤالات عن الأفاعي . فأجابني من حَيْر لندن الأستاذ بول « D . J . BALL » القائم على رعاية الأفاعي في الحير ، والأستاذ آرنولد « E . N . ARNOLD » من متحفة التأريخ الطبيعي . وأخذا بتفسيري قائلين إنّ المراد بـ « الخَمْر » المكان في الصحراء يكون فيه شجر ، لا الخَمْر المشروب المسكر ، وإنّ الأفعى يعجبها الخَمَر في الحرّ لما فيه من ظلّ وبلّة[٩] . وفي تصداق ذهاب الأفعى الى الخَمَر أقول : اتفق أن قحط المطر عن شماليّ العراق ، وجاء قيظ له حرّ شديد ، فعزّ الماء ، ويبس الشجر ، واقشعرّت الأرض . وأظن ذلك كان سنة ١٩٧١ ، فزحفت مجاميع من الأفاعي بين سَهلية وجبليّة الى شقلاوة من أعمال إربل ـ واسمها القديم شقلاباد ـ والى القرى المجاورة لها ، لبرودتها ووفرة الشجر والماء فيها . وقد أشارت بعض الصحف العراقية الى ذلك . ولا يكاد هذا يختلف عن مصير أفعى النقا الى الخَمَر[١٠] . وكيف يتيسّر لأفعى النقا أن تشرب الخمر في البادية وهي يتعسّر عليها شرب الماء فيها ؟ ان ذلك يذكّرني مارواه البيهقي في « المحاسن والمساوئ » من أن أعرابياً أراد أن يبتاع جارية من سوق النخّاسين ، فقيل له إنها تسكر فقال : « فو الله مانقدر على ريّها من الماء فكيف تصيب شراباً ؟ » (٢ / ٤٠٠) .

والثاني : قوله بأن الأفعى « لاترد الماء ولاتريده » . وهو قول يدفعه قول الأستاذ بول في رسالته : « الأفاعي كلها تشرب الماء » . وقوله هذا هو الذي اليه نئل ، وعليه نتّكل ، لأنه القائم على مطعوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأفاعي ومشروبها في حير لندن . وكأنّ الجاحظ غفل عن مراد بشر بن المعتمر ببيته ، فعمّ بحكمه الأفاعي جميعاً مع أنّ حكم بشر خاص بأفاعي النقا . وأظنّ أنّ بشراً عنى بعدم ورود أفاعي النقا الماء أنها لاترده في أغلب الأحيان ، فساق كلامه على نيّة التغليب ، فإن صحّ ظني كان قوله صحيحاً لما ذكره الأستاذ آرنولد في رسالته مع أنّ في مقدور أفعى النقا أن تصبر عن الماء أياماً بل أسابيع، وهي تجتزئ منه بالقليل ، وماؤها يكون من المطر ، وعند احتباسه ـ واحتباسه يطول ـ يكون ماؤها من لحسها الندى ، أو من بِلّة ما تأكله من حيوان أو غيره ، ويشهد لصبرها عن الماء ماذكره الأستاذ باركر في كتابه « الأفاعي » (ص ٣٤) من أنّ لجسم أفعى النقا قدرة على حفظ بِلّته « بفضلاته النيتروجينية » ، ومن أنّ جلدها يقاوم البيئة الجافة ، فلا يُؤذَن الاّ للقليل جداً من البخار بالنفوذ من داخل الجسم الى خارجه ، ومن أخذها بسيرها الجانبيّ ، وهو الذي يقال له بالانكليزية : « side winding » وهذا السير الجانبي يكون بأن يطأ جسمها الأرض من موضعين فكأنها تطأ الأرض بقدمين ، وهو بدلٌ من الزحف الذي به يموج جسمها فيكون بمَوْجه تبديدُ بلّته[١١] فصبرها عن الماء لاينبغي أن يُتأوّل بأنها لاترده أو بأن الحاجة لاتُحوج اليه .

والثالث : قوله إنّ الأفعى « اذا وجدت الخمر شربت منه حتى تسكر » . ومعناه أنها تحب شرب الخمر . ويعلّق على هذا القول الأستاذ آرنولد بقوله في رسالته : « إنّ ذلك لا دليل عليه » . أما الأستاذ بول فيعلق بقوله في رسالته : « إنّ الحيّات لاتميل إلى شرب الخمر » . وكأنه أراد التحرّز بقوله « لاتميل » دون النفي القاطع ، لجواز أن تشرب بعض الأفاعي الخمر ، كأن يتحيّل حوّاء لأن يعوّدها شربها[١٢] . وذلك لايتخذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منه حكم يعمّ الأفاعي جميعاً . وكنتُ رأيت ببغاء يقدّم اليها النبيذ فتصدف عنه في تأبٍّ وشِماس ، وبعد افتنان في ترغيبها فيه تصيبُ منه حسوة أو حسوتين على تكرّه وتفصٍّ . وقيل لي : إنها تمتنع كل الامتناع من أن تصيب من أي ضرب آخر من أضرب المشروبات المسكرة . فمن رأى الببغاء وهي تحسو النبيذ لم يجز له أن يخرج بحكم في الببغاوات مفاده أنّ لهنّ هوى في هذا الضرب من المشروب .

فالذي علّق به الجاحظ على البيت لايَعْلَق بقبول ، ولايدخل في معقول . وأقوى ماإجترّه الى ذلك إسكانُ ميم الخَمَر لوزن البيت ، ومقابلته بالماء . ومع أن قصيدة بشر بن المعتمر من الشعر الفاخر ، فإنّ بيتها الذي أنا بصدده مُعْوِر ، لدَخَل في تأليفه ، وخَلَل في بيانه . وكأني ببعض القدامى لم يرتضِ روايته ، فجعله كما في بعض طبعات الحيوان (عطوي مج ٢ / ص ٤٩٢) :

لاترد الماء أفاعي النقا   لكنما يخنقها الحرُّ

فإن كان جُعل كذلك عن قصد ، كان فيه حيف على النص ، وانقطاع عن تفسير الجاحظ للبيت . ولو كان اليّ لقلت بدلاً منه ومن البيت الذي يليه :

لاماء تحسوه أفاعي النقا   الاّ اذا ماأسعف القطرُ
وإن أتاها القيظ والحرُّ   جدّ بها للخَمَر السيرُ

وقولي السير بدلاً من الزحف هو لما ذكرته من سيرها الجانبيّ : side winding ، أو هو منظور فيه إلى قوله تعالى « فمنهم من يمشي على بطنه » [النور / ٤٥] ، أو الى ما كتب به عبد الملك بن مروان الى وليده مسلمة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لِمَنِ الظعــــائن سيرُهُنّ تــزحُّفُ مثل السفين اذا تقاعس يُجـذفُ

أو هـو على الأصل ، لمـا زَعم من أنّ الأفعى كان لهـا مـاتسير عليـه ، ثم عـاقبهـا الله بـأن حرمهـا إيّـاه فـاضطرت الى الزحف . أمـا ذكر الحرمل فيترك للمفسر ، كأن يقول : وهي تـؤثر من أشجـار الخَمَر الحرمـل لـدوام خضرته ، وكثافة ظلّه .

هذا مااستطعت إعداده للنشر من « الملاحظ في حيوان الجاحـظ » ، وأسأل الله أن يكنفني من الرأي الغالـط ، والظن الخـابـط ، ولـه الحمـد ، وبه المعتَضَد ، وإليه الإنابة .

تنبيه

مقالتي « تعليقات على انتقاد معجم الأخطاء الشائعة » المنشورة في هذه المجلة (مج ٥٨ / ج ٤) : كنت بعثت الى المجلة بتعديل الفقرة ١٣ منها قبل النشر ، ولكنه لم يصل . والتعديل هو : [وقال (ص ٤١٧) (فاذا زاد الفتح عن القصد المألوف) فعدّى (زاد) بعن بدلاً من على ، وهي تعدية فصيحة ، وإن كنت أظنها مولّدة ، لأن العرب ربما عدّت الفعل بحرف الجرّ الذي يعدّى بـه ضدّه ، ثم إنّ حلول (عن) محل (على) في كلامهم كثير . ولكنّ الذي يخطّئ الجوهري في (التشويش) الأخلق بـه والأزين لـه أن يـأخـذ بـالأفصح ، وهـو التعدية بعلى] ثم استشهدت بأربعة شواهد لا غير ، وقد نشرت وهي : الآية الكريمة ، وقول عمرو بن قميئة ، والحجاج ، والوليد بن يزيد ، فعسى أن يؤخذ بالتعديل دون غيره .

صبحي البصام

الحواشي

(١) [لم نجد الشاهد في اللسان ـ بدد / لجنة المجلة] .

(٢) قال الراغب في محاضراته إن اسم المولودة حمزة . قلت : وإنما قـال ذلـك لأن أول الرجز : مالأبي حمزة لايأتينا . ورواية حمزة هي كذلك في العقد الفريد وغيره . وحمزة من أسامي الرجال لاالنساء . والأغلب أن يُكنى الرجل باسم ذكر ، وقد يكنى بذلك يوم مولده . قال الشاعر :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فسمّـــــــــــه محمــــــــــداً وكنّـــــــه أبــــــا الرجـــــــا

وكنت كتبت الى صديقي الأستاذ حسن محمد حسين أن يسأل دارة النفوس العامة ببغداد إن كان في سجلاتهم « حمزة » اسم امرأة . وجاء في جوابه : « فنفوا لي ذلك . قالوا في سجلاتنا من أسامي النساء كثير من جمرة وحمدة أما حمزة فلا » . فإن كان المراد بحمزة من قول الأعرابية اسم امرأة فالراجح أنه تصحيف جمرة ونظير هذا التصحيف ماوقع في كتاب الحيوان (١ / ١٥) ولم ينبّه عليه الأستاذ المحقق وهو قول النمر بن تولب :

جزى الله عني حمزة ابنة نوفل ...... البيت

[هذا ماوقع في كتاب الحيوان ط ١٩٣٨ م ، والذي جاء في كتاب الحيوان (١ : ١٥ ، ط ١٩٦٩ م) : جمرة ابنة نوفل ، وعلق المحقق : « وجمرة بالجيم اسم زوجته ، كما في الأغاني ١٩ : ١٥٨ » / لجنة المجلة] .

(٣) إن كنت سأخرج باستطرادي عما أنا بصدده فلن أذهب بعيداً ، وإنما هي تغنّم فرصة لأتمّ ماتوصلت اليه في بل و إنما .

(٤) [قال المعافى بن زكريا (الجليس الصالح / بيروت ١٩٨١ م ، ج ١ : ٤٧٦ - ٤٧٨) : « وقد اختلف أهل العلم بالعربية في تذكير السكين وتأنيثه ، فذكّر بعضهم وأنكر تأنيثه ، وأنّثه آخرون وأبوا تذكيره ، وأجاز فريق الوجهين معاً فيه ، وهذا أولى الأقوال بالصواب عندنا فيه ..... » / لجنة المجلة] .

(٥) قال بعض أصحاب السيرافي وهو أبو محمد الأندلسي في المقابلة بين أبي عثمان الجاحظ وأبي حنيفة الدينوري : « لفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب وأدخل في أساليب العرب » (المقابسات ص ٥٨) .

(٦) لعلّ الأصل في الرسالة « بله أني لم أجر » ليضح المصدر المقدّر بعد « بله » . وبله معناها دع ، فيكون التقدير : دع عدم إجارتي . ومن يقرأ الرسالة بكاملها يقف على ماقصدت اليه ، ويدرك أنّ « بله أني لم أجر » أفضل من « بل لم أُجر » . وكان مرجع ابن خلكان في الرسالة المذكورة تأريخ الطبري ، على ما قال عند ايراده الخبر المتصل بالرسالة . أما ابن كثير فمعروف بكثرة نقله من الوفيات وتأريخ الطبري .

(٧) [البيت من شواهد اللسان (نعل) جاء به للتدليل على تحريك حرف الحلق لانفتاح ماقبله . والبيت لكُثير عزة من قصيدة له في رثاء عبد العزيز بن مروان (ديوان كثير عزة ، تح احسان عباس ، ص ٣٢٤) وروايته في الديوان :

اذا طرحت لم تطّبِ الكلبَ ريحُها وإن وضعت في مجلس القوم شمت

وعلى هذه الرواية فلا شاهد فيه / لجنة المجلة]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٨) الحير مايقال له الآن « حديقة الحيوان » ، وهو في الانكليزية Zoo ، ومن معاني الحير قديماً شبه الحظيرة . قال الخطيب البغدادي في المقدمة الخططيّة (ص ٤٧ ـ ٤٨) : « وكان الميدان والثريا وحير الوحش متصلاً بالدار » . وقال هلال بن المحسن الصابي في « رسوم دار الخلافة » في دار الخلافة إنها « كانت متصلة بالحير والثريا » (ص ٧) . وقولهم الآن حديقة الحيوان صحيح لأن من معاني الحَيْر الحديقة . ومن شاء نظر إن شاء الله في حاشية على « رسوم دار الخلافة » (ص ٧) لمحققه الأستاذ ميخائيل عواد .

(٩) كانت مدرسة الطب للمناطق الحارة من جامعة لندن أحالتني على الأستاذ ريد « Reid » المختص بالأفاعي في مدرسة الطب للمناطق الحارة من جامعة لڤربول . وقيل هو أعلم المختصين بالأفاعي في انكلترة . ثم إني كتبت اليه بعد زمن طال (صيف ١٩٨٣) فجاءني الجواب على غير ماأنتظر لأني أُخبرت أنه توفي منذ نحو شهرين . ثم كتبت الى الحَيْر والمتحفة المذكورين ، فأجابني الأستاذان المذكوران . فأشكر لهما بهذا تفضّلهما عليّ ، وأسأل الله أن يجزيهما عن العلم خيراً .

(١٠) على أن الأستاذ پاركر (H. w . Parker) يقول في كتابه « الأفاعي » (Snakes) إن أفعى النقا عند وَقَدات الحرّ وعزّات القيظ تدفن جسمها في الرمل وتخرج منه منخريها للتنفس ، وقد يغمى عليها وتظل كذلك اياماً . (ص ٣٤) . قلت : كأنه أراد أن يقول إن ذلك يكون عند عدم الخمر أو مايسدّ بعض مسدّه ، وإن الاغماء يفقدها الشعور بأذى الحرّ .

(١١) يسمي الأستاذ پاركر هذه الأفعى الأفعى الرملية ، ويقول إنها موجودة في الصحاري العربية والسند وفي بعض الصحاري من إفريقيا وامريكا الشمالية . وهي مختلفة من جهة الطول وبعض الطباع .

(١٢) جاء في الحيوان للجاحظ (٢ / ٢٢٩) خبر موجز جداً يقول إن حاوياً احتال لأفواه الحيات ليصبّ في حاقّ أجوافها الخمر بالأقماع والمساعط ، وذلك لايدل على رغبتهن في الخمر ولا اعتيادهنّ عليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net